قضايا اللغة العربية المعاصرة
بحث في الاطار العام للموضوع

أعـده

المرحوم : الدكتور شكري فيصل

مقدمة : مكانة اللغة من الحياة العربية ، ومكانة العربية من المجتمعات الاسلامية ــ تطلعات وواقع

الأهمية التي تلقاها اللغة في المجتمعات المعاصرة لا تكاد تعدلها ــ في المجالات النظرية ــ أهمية أخرى . وسواء أكانت هذه المجتمعات من مجتمعات العالم المتقدم أو العالم النامي فإن قضايا اللغة تقع في الموقع الأول من اهتمامات عالم اليوم .. :

أما الشعوب المتقدمة فذلك لأن انتشار اللغة أضحى هو الطريق الى بسط النفوذ الذي يبدأ نفوذا معنويا ثم يؤول الى أن تخالطه كل وجوه النفوذ المادي .. ولذلك تعاني الشعوب المتقدمة ذاتها أنواعا من التنافس اللغوي.. كل منها يحاول أن تكون لغته هي اللغة الأقوى ، وهي اللغة الأكثر شيوعا وانتشارا ...

وأما الشعوب النامية فذلك لأنها تعاني أحد الأوضاع التالية :

أ ــ إما أن تكون تعاني تعدد اللغات وكثرتها (الهند مثلا) .

ب ــ وإما أن تكون تعاني صعوبات اللغة القومية (الصين ، واليابان) .

ج ــ وإما أن تكون تعاني صراعا بين لهجاتها المختلفة .

د ــ أو أن تكون تعاني ازدواجية لغوية بين اللغة الوطنية التي تتطلع الى استعمالها وبين اللغة الأجنبية ، التي انتشرت فيها بحكم الاستعمار .

هـ ــ أو أن تكون تعاني جوا حضاريا متخلفا لا يساعدها على إحلال لغتها الوطنية في مكانها الطبيعي من الحياة والمجتمع والتعليم والادارة ، ولذلك تحيا في نوع من القلق اللغوي ، فلا هي قادرة على استعمال لغتها ، ولا هي قادرة على تقبل اللغة الأجنبية .

ــ أو أن تكون تعاني غياب اللغة

المكتوبة : تكون لها لغتها المنطوقة ولكنها لم تدون أو لم تكتب بعد .

وقد تعاني بعض الشعوب متاعب لغوية متعددة ، فيجتمع عليها هذه وتلك من مشاكل اللغة وتواجه متاعب متعددة الأطراف .

ولذلك يبدو لي أن أكبر القضايا العالمية وأكثرها تعقيدا على صعيد الفكر والحضارة هي القضية اللغوية .. وإذا كان القرن الماضي شهد القضية القومية الكبرى وهي مقارعة الاستعمار وتصفيته ، وشهد القضية الاجتماعية الكبرى وهي تضييق الفروق بين الغنى والفقر ممثلا بالنزعات الاشتراكية المختلفة .. فإن القرن الجديد هو قرن المشكلات اللغوية ومحاولة الوصول لحل لها .

إن تقهقر الاستعمار المادي أفسح مجالا لظهور استعمار جديد اصطلحنا أن نقول أنه الاستعمار الفكري ، وانه ليتمثل أشد ما يكون التمثل في هذه الأوضاع الشاذة ، وفيما تخلف من عقابيل في حياة الشعوب ، وفيما يكون لها من خلفيات عميقة تتناول الجذور .

ليس علينا من حرج اذن اذا نحن رأينا في القضايا اللغوية قضايا العقود الأخيرة من هذا القرن الميلادي الحالي وقضايا العقود الأولى من القرن الهجري الجديد .

ويعود ذلك الى جملة من الأسباب التي تخالط المجتمعات العربية والاسلامية ، والتي تدفعها دفعا — اذا هي أرادت السير في الطريق السوي — الى معالجة هذه المشكلات والتصدي لها ومحاولة الوقوع على حل لها .

— 1

وأول هذه الأسباب أن الطموح الاسلامي الكبير الذي نحسه وقد لا نراه يتلامح لأعيننا ولكنه لا يتمثل على نحو مادي واضح .. هذا الطموح يرنو الى أن تكون اللغة العربية هي لغة الاسلام والمسلمين أينما وجدوا وكيف كان توزعهم أو تفرقهم .. إن هذا الارتباط تستره الآن ظروف مختلفة ، منها ظروف التعصب القومي أو بقاياه ، ومنها الاعتزاز الطبيعي الذي يحسه المرء نحو لغته الأم .. ولكننا — على ذلك فيما أقدر — مقبلون في الوطن الاسلامي الكبير على عقود تتأخر فيها النزعة القومية مهما تكن شدتها ، وتفسح المجال أمام نزعات انسانية مشتركة بين المسلمين ، وتعود فيها اللغة العربية الى مثل قداستها ، وتحل هذه القداسة محل التطبيق الجزئي أو الكلي .

إن الارتباط بين الاسلام والعربية من أروع ما تفتقت عنه عبقرية الاسلام وهو وجه من وجوه إعجازه .. واذا كانت الشعوب السوفيتية تعاني ، في دعوتها العالمية ، أبرز ما تعاني ، مشكلة اللغة الواحدة فتلجأ إلى مثل الفرض والقهر في حلها — فإن الاسلام تجاوز هذه المشكلة منذ اللحظة الأولى ، حين وحد بين الدين وبين اللغة العربية ، أو لنقل أنه ربط بينهما هذا الربط المحكم ... وكأنما أخرج العربية عن نطاقها الضيق على اللسان الى مكانها الطبيعي من العقل والفكر ... فأسقط مشكلة اللغة التي تعانيها بعض المجموعات الانسانية المتعددة الشعوب ، أو بعض الامبراطوريات ... أسقط ذلك من نحو نظري ومهد الطريق لاسقاطه من نحو عملي .. ولكن الانحراف الخاطىء في وجهة الحركة الاسلامية وأخطاء بعض القادة — بصرف النظر عن ظروفهم الملجئة — والاشارات الخارجية وضيق الأفق الداخلي عند بعض الجماعات ، أفسد على العمل الاسلامي تجربته الكبرى والرائدة في هذا الموضوع .

ووراء ذلك سبب آخر يتصل بالطموح الحضاري العربي .. فنحن في الوطن العربي متطلعون نحو اللحاق بالركب الحضاري أولا ثم نحو المشاركة في صنع الحضارة .. يهدينا إلى ذلك ويدلنا عليه أصالة وجودنا ، ومراحل مضيئة من تاريخنا ، واستعداد نفسي لمعانقة البشرية كلها ، وتفتح عقلي بعض مصادره الأساسية ترتد من نحو نظري الى القرآن وما فيه من حث على النظر في الكون والطبيعة .. وبعض مصادره من نحو تطبيقي ، ترتد الى تجربتنا الحضارية خلال عصور الازدهار .. فضلا عن أن ايماننا بالدعوة الاسلامية يخلق عندنا — على نحو مباشر — نوعا من الشعور بالمسؤولية نحو رقي العالم وتحضره وسلوكه سبل السعادة الدنيوية الى جانب السعادة الأخروية .

ولكن الحضارة لا تتأتى لأحد إلا عن طريق اللغة .. الحضارة في نوع من التعريف الموجز ، هي لغة ، وعن طريق اللغة يكون التفكير كله ويكون التفاهم كله ، ويكون التواصل كله ويكون التفاعل بين العقول والأفكار .. اللغة هي أضخم عملية حضارية ، تنشىء الحضارة وتتمثلها وتعبر عنها ، وهي ذات رصيد حضاري لا حدود له .

ولهذا فإن نمو لغتنا وازدهارها وقيامها بدورها الفكري هو مَعْلَمٌ بارز من معالم حياتنا الحاضرة ، وطريق أساسي من طرق بناء المستقبل .

* * *

هذه اللغة العربية ، هي ، في الحق ، إحدى لغات العالم .. واذا كان البحث النظري الغربي لا يفرق بين لغة وأخرى ، لأنها كلها وسائل للتعبير والتوصيل والتفاهم — فإن واقع اللغة العربية منحها نوعا من التميز والفرادة إذ أكسبتها تجربتها الحضارية ، على مدى قرون ، ثروة هائلة من البُنى ، واحتبست تعابيرها في أرحامها قدرات خفية على العطاء وعلى الايحاء وعلى تنويع التعبير .. كما أكسبها انتشارها الواسع في بقاع فسيحة من الأرض وتفاعلها مع جماعات لغوية كثيرة ألوانا من الغنى ، تأثرا وتأثيرا . فهي إذن ليست هذه اللغة الأولية البدائية التي تحاول أن تصبو الى مقاربة الحضارة أو ملاحقتها أو الاندماج فيها .. وإنما هي هذه اللغة ذات التجربة السابقة .. وما كان لظاهرة ما اجتماعية أو انسانية أن تقوى على التخلي عن تجاربها السابقة ، فهذه التجارب جزء منها .

ولكن هذه اللغة ليست ماضيا حضاريا قائما على السلامة والأمن .. وإنما تعرضت خلال القرون الأخيرة بخاصة الى كثير من الغزو ومن التحطيم .. أراد لها أعداؤها أن تنكمش وأن تتقلص ، وساعدوا على هذا الانكماش والتقلص وألجأوها الى آفاق ضيقة بعد آفاقها العريضة ، وابتلوها بأنواع من المحن ، ووجهوا اليها كثيرا من التهم ، وكأن التقدم الحضاري الغربي الباهر ، قد غشى على الأبصار والألسنة : رفت الأبصار بمثل العجز عن الرؤية ، وتلجلجت الألسنة بمثل العجز عن التعبير ، وعقلت الدهشة ألسنتنا ، وجاءتنا القوى الغازية وهي تؤمن أن فصم هذا النسيج اللغوي الذي يؤلف النسيج الفكري هو طريق التغلب والانتصار .. فإذا نحن نتلقف اللغات الأجنبية ، واذا نحن محمولون عليها ، وإذا أجيال من أجيالنا تنشأ وعندها هذا الشعور بالنقص اللغوي... لولا صيحات تحذير ، وجمعيات اصلاح ، وتيارات فكر ، ولولا ايمان وعقيدة ودَيْن في أعناقنا لهذا الكتاب الكريم سبق الصيحات والجمعيات والتيارات .. ولولا ذلك كله لكنا طرائق بِدَدا على حد وصف القرآن الكريم .

اللغة العربية اذن ليست في وضع أمْنِيّ سليم يساعدها على التطور الحقيقي في ملاحقة الحضارة واحتوائها . إنها في حالة حرب .. الدفاع عن الذات

يشغلها .. دفاعها أمام الغزاة من الخارج وأمام الضعفاء من الداخل ، وهي حالة من حالات الاستنزاف .. يجب أن تتجاوزها حتى تلتقي قدراتنا اللغوية كاملة على العمل لنصرة العربية بعيدا عن كل جدل نظري أو نقاش لا مردود له ، بعد أن استقر في الذهن اللغوي البشري أن لغة الشعوب ذاتها هي أقصر الطرق الى تقبل المعرفة والعلم والحضارة .

وقد نشأ عن حرب الاستنزاف هذه أجيال أسهمت في هذا التشتت اللغوي ، فإذا نحن فِرَق ومِزَق ، واذا هذه الفرق تختلف منها الرايات والأعلام .. لغة غريبة منتشرة هنا ولغة أخرى منتشرة هناك أو غالبة .. فلم يتحقق لهذه الأجيال إلا أصالة اللغة العربية ولا وحدة اللغة الأجنبية .. وانقطع القرين عن القرين . ونشأت في الوطن العربي بابل جديدة ولكنها ليست بابل العرب ، وإنما هي بابل الغرب في أرض العرب نفسها .

وهكذا تجد العربية نفسها أمام دوافع ومثبطات .. أمام طموحات كبيرة وواقع ضعيف .. أمام الماضي والمستقبل ، أمام العرب أنفسهم وأمام العرب من جهة والشعوب الاسلامية من جهة أخرى .

وهو وضع يقتضي أن يعرض وأن يعالج وأن تقال فيه الكلمة الحق الفاعلة .. أن نؤمن بوضوح ودون أي تردد بمكانة اللغة العربية في حياة العرب أنفسهم ، ومكانتها من حياة المسلمين .. وأن نؤمل لها في هذين الوجودين المتكاملين : العرب والاسلام .. أن نطمئن الى أنها ، بالنسبة الى العرب ، هي الرابط الذي بقي لهم بعد أن خسروا أكثر المعارك ... والى أنها — بالنسبة الى المسلمين — الرباط الذي يؤلف بينهم في مسعى حضاري مشترك ، وفي عقود مقبلة قريبة تسيطر فيها الأيديولوجيات وحدها — حتى ولو لم تكن وراءها مصالح تساندها — .. لابد من تجديد هذا اللقاء بين العرب والمسلمين في أحضان اللغة ، وفيما تضيء هذه اللغة من آفاق الفكر والعلم ، وما تخلق من أجواء الحضارة الواحدة .. وبخاصة إن استطاع هؤلاء العرب أن يمنحوا هذه اللغة عبقريتهم وأن يفتحوا عبقريتها .

إن الطريق أمام العربية في الشعوب الاسلامية — بل أريد أن أجاوز ذلك الى الشعوب الافريقية أيضا [1] — مفتوح .. شقه قرون من التاريخ ، وأحقاب من الزمان ، ومعالم من الحضارة ... لقد أنضج ذلك كله هذه الصلات بين العربية وبين اللغات الاسلامية وجاء الحرف العربي متوجا لهذا النضج .. اذ استطاع هذا الحرف أن يحتوي هذه اللغات وأن ينطق بها وأن يعبر عن أصواتها اللغوية ، وأن يكون بالتالي تعبيرا عن عالمها الداخلي وبذلك تجلببت به هذه اللغات فأضحى رمزا من رموزها الكبرى في حياتها العقلية والوجدانية .

واذن ، فأمام العربية في تحركها المأمول ، وفي دنيا التواصل الحضاري العالمي المرتقب خلال القرن الجديد بآفاق مديدة جديدة تجتذبها وتستدعيها ..

إنها ليست جديدة الجدة كلها ، وليست أُنُفاً وإنما هي مطروقة مذللة ، لأنها آفاق حضارة عاشت من قبل دهرا طويلا .. كل الذي تحتاج اليه أن تُدَمّث طرقها ، وتلين عِقابها ، وتنقى من وعورتها ، وأن تثار الدوافع النفسية العميقة لها .

غير أن العربية لا تستطيع أن تتقدم الى ذلك وهي تحمل الأعباء الثقال .. إنه لا بد لها أن تتخلص من بعض ما تعانيه ، وأن تقدم للناس

(1) في القسم الثالث من البحث عند الحديث عن تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، فضل حديث عن العربية والافريقية.

صافية نقية .. أن تدخل عوالمها القديمة ـــ الجديدة من أعرض الأبواب .. لا بد لها من ذلك لضمان نموها الذاتي ، وتناميها الخارجي .

ومن هنا تتمثل الحاجة شديدة الى معرفة أوضاع اللغة العربية ، وقضاياها المعاصرة التي تلح عليها ومشاكلها التي تعانيها ، والى الطِبِّ لهذه الأوضاع ودراسة هذه القضايا ..

فما هي أبرز المشكلات وما هي الطرق الى حلها ؟

وسنرى إن بعض هذه المشكلات والقضايا مما فرضته الحياة المعاصرة نتيجة لاتصال الشعوب ، وبعضها مما تفرضه طبيعة اللغة في البلاد العربية ، وبعضها جاء نتيجة للتخلف الذي أصاب العربية فقطعها عن مواكبة التقدم .

إننا نستطيع في نظرة فاحصة أن نحدد الموضوعات التي تجب معالجتها في عنوانين كبيرين :

حماية اللغة العربية

نشر اللغة العربية

ثم يتلو هذين العنوانين عنوان ثالث باسم الوسائل ، وهو يتضمن الوسائل التي تشترك بين هدفي حماية اللغة ونشر اللغة .

ولكن يسبق ذلك كله أو يجب أن يسبق ذلك كله معرفة دقيقة بهذه اللغة العربية التي نتحدث عنها ونسبر قضاياها ومشاكلها .. فهذه اللغة لغة قيمة ونحن نعرفها من جانب نظري ، من خلال ما كان من بحوث اللغويين العرب القدامى عنها .. ولا بد لنا من معرفة جديدة بها وتعانق مع خصائصها من خلال البحوث اللغوية التي داخلت علم اللغة . وذلك ما نسميه بعنوان : المدخل النظري .

واذن ، فإن في وسعنا أن نجمل بحث قضايا

أولا – مدخل نظري : معرفة اللغة العربية عن طريق البحث اللغوي واتاحة الفرصة لمخالطة الدراسات اللغوية الحديثة والافادة من معطياتها النظرية ووسائلها العملية .

ثانيا – حماية العربية : ويتناول :

ـــ الصراع الداخلي بين العاميات والفصحى (ظاهرة التفتت اللغوي)

ـــ الغزو اللغوي الخارجي (ظاهرة الازدواجية اللغوية)

ثالثا ـــ نشر العربية : ويتناول :

ـــ تعليم العربية للعرب .

ـــ تعليم العربية لغير العرب من الشعوب الاسلامية التي تستخدم الحرف العربي ، والتي لا تستخدمه ، والشعوب الأجنبية .

ـــ التعليم الجامعي واللغة العربية (المصطلح العلمي) .

رابعا ـــ بعض الوسائل : ويتناول :

ـــ الطباعة العربية

ـــ المعجم العربي

ـــ وسائل الاعلام واللغة العربية .

وليس يتطلب أحد من هذا التقسيم أن يكون دقيقا على نحو لا يسمح بشيء من تعديل بسيط في الموضوعات أو في تتابعها .. إن البحث اللغوي في الأصل وحدة كاملة متداخلة .. لا يقبل الفصل بين أجزائه إلا على نحو من التسهيل أو التقريب أو توزيع الجهد ... وهو بذلك يمكن أن يتيح الفرصة أحيانا لكي نلمح علاقة أحد العناوين الصغيرة بأكثر من عنوان واحد كبير .. مما يدفعنا الى التسامح في قبول هذا التقسيم رغبة في تماسك البحث ، ونزولا عند

ضرورة اصطناع الحدود ، في عمل متداخل كبير .

أولا ــ المدخل النظري

معرفة اللغة العربية معرفة أدق عن طريق تجديد البحث اللغوي واتاحة الفرصة لمخالطة الدراسات اللغوية الحديثة والافادة من معطياتها النظرية ووسائلها العملية .

اللغة العربية لغة قديمة .. ومعرفتنا بها تحددها أبحاث لغويينا القدماء في عصور الازدهار . والنظريات التي انتهوا اليها من خلال ملاحظاتهم واستقراءاتهم .

وقد استطاعت هذه الأبحاث أن تفيد من ثمرات الفكر اللغوي العالمي آنذاك .. فعرفت ما عند الهنود بخاصة وما عند غيرهم من الشعوب ، واضافته الى ما كان من عبقرية علمائها في الملاحظة والاستقراء والتقنين .. وتكوّن من ذلك كله تراث لغوي ثمين هو اليوم ، باعتراف الباحثين المحدثين ، من أبرز ما حققت الدراسات اللغوية على مدى التاريخ القديم .

غير أن تجدد البحث اللغوي ونشوء مدراسه الجديدة في أوروبا أولا ثم في أمريكا ونظريات اللغويين الجدد تلقي على عاتقنا ، ونحن نتعرف الى قضايانا اللغوية المعاصرة عبء الحاجة الملحة الى معرفة ما كان من تجدد البحث اللغوي ، وما وصل اليه العلماء من نظريات ، ثم ما يكون من استخدام هذا الذي وصلوا اليه والافادة منه في تشقيق معرفتنا باللغة العربية واغناء هذه المعرفة .

إن الوضع اللغوي النظري يتميز الآن بهاتين الصفتين الحادتين :

أولا ــ مباحثنا اللغوية القديمة تكاد تكون محجوبة عن الجيل اللغوي الجديد .. إنه لا يستطيع أن يفهمها لابتعاده عن أصوله ، وعدم ممارسته لها ، وتغلب الجديد عليه .. فإذا فهمها فإنه لا يستطيع أن يُحِلَّها في ذهنه محل المعلومات التي يتفاعل معها وينمّيها .

ثانيا ــ المباحث اللغوية الحديثة مقصورة على نفر معدود من الباحثين اللغويين ، من الذين أتيح لهم الاطلاع عليها والتمرس بها في الدراسات الغربية ، ولكن هؤلاء لا يعدون دائما ، قادرين على أن يُخْضِعوا هذه الآراء للغة العربية ، وأن يقيموا هذا الجسر بين القديم العربي والجديد الأجنبي .

أمام هذا الوضع ذي الوجهة المزدوجة ، نجد أنفسنا في أشد الحاجة الى أن نؤلف بين هاتين الوجهتين المزدوجتين ، وأن نقيم بينهما هذا التواصل على أساس الفهم الدقيق ثم على أساس التفاعل .

لا بد من جيل من الباحثين يفهم بعمق ما كتبه لغويونا القدماء ، ثم يستطيع أن ينقل فهمه القديم هذا الى الأبحاث الجديدة .

ولا بد لنا كذلك ، بالضرورة ذاتها ، من جيل آخر من الباحثين اللغويين يفهم بعمق اتجاهات البحث اللغوي الجديد ومدارسه ثم يستطيع أن ينقل هذا الفهم الى الأبحاث القديمة وأن يمدّ هذا الجسر بينهما ، على نحو يسمح لنا بالافادة من القديم والجديد في آن واحد أولا ، ثم يسمح لنا بأن نقيم هذا التفاعل وتطبيق الجديد على اللغة العربية ، ما أمكن ذلك ، لأن من المعروف أن منابع هذا الجديد وأمثلته وشواهده كلها مستقاة من اللغات الأجنبية .

إن مثل هذا العمل في هذا الاتجاه المزدوج يضع بحوثنا في مستوى العصر الحاضر .. ويقربنا الى

البحث العالمي ، ويقرب البحث العالمي منا .. ولا بد أن يُنتج هذا الاقتراب ، في جيل يأتي بعد ذلك ،نوعا من التفاعل ، تتجدد معه النتائج وتتطور النظريات ..

وأيا كانت نتائج هذا التفاعل فإنها ستكون نتائج خيرة ، لأنها ستتيح هذا التلاقح بين ثمرتين مختلفتين ، وستتجدد الطعوم والألوان في كل من هاتين الثمرتين .

إن هذا الاتجاه سَيحدّث معرفتنا بلغتنا ، وسيكون أكثر وفاء لماضينا لأنه سيلقي على هذا الماضي أضواء من معطيات الحاضر ، وسيساعد على انارته وكشفه .. فقد أضحى مؤكدا أن أصول عدد كبير من النظريات اللغوية لم يغب عن الباحث العربي وإنما خالطه ، وتفشى في مباحث اللغويين القدامى .. ولم تكن الأبحاث الحديثة إلا توسعة له وزيادة في أطرافه بالقدر الذي ساعد عليه التقدم الثقافي العام والعلوم الانسانية الأخرى المساعدة .

من هنا كان أشد ما يكون لزاما أن نُعنى بالمزاوجة والمقارنة بين قديمنا والحديث الذي يطالعنا أو يغزونا .. القديم في حاجة الى أضواء من الحديث تجلوه وتعيد عرضه .. والحديث في حاجة الى هذا القديم حتى يكون مُتَّكأً له ومستندا .. وذلك حتى لا يكون الذهن العربي مفاجأ ولا مدهوشا أمام الجديد .. وحتى تكون النفس العربية أكثر ثقة بذاتها ويقينا بقدرتها ، وإيمانا بأنها لا تبدأ مسيرتها الحضارية من الصفر ، وإنما هي تتابع مرحلة سابقة طويلة من هذه المسيرة ، امتدت على طول قرون عديدة من قرون الازدهار .

ولا يمكن أن يكون مثل هذا العمل عفويا ، ولا أن يُترك للصدفة ، ولا يمكن أن تنتظره انتظارا غيبيا متوقعين أن ينهض به فرد ما .. وإنه لا بد له من برامج تختار الطريق وتنتخب الأفراد وتوجد المؤسسة وتوفد العلماء وتمهد السبل أمام التقدم العلمي ذلك لأننا هنا نحس الحاجة الى نمطين من الناس :

الناس الذين عرفوا الماضي اللغوي وأصابوا حظوظا من معرفة الجديد .. فهؤلاء هم المرشحون لأن يعيدوا علينا عرض الماضي .. والقاعدة تقول : إن أول التجديد قتل القديم فهما .

والنمط الآخر هم الذين لم يغب هذا الماضي عنهم .. أن لهم به صلات ، ولكن صلاتهم بالحديث أشد واطلاعهم عليه أقوى .. فهؤلاء هم المرشحون لأن يعرضوا علينا هذا الجديد ، مستخدمين لغتنا التي نتعامل بها وأساليبنا التي تدور بيننا ومفاهمنا ومصطلحاتنا التي استقرت في ضميرنا كل هذه القرون .

ومن هنا كان لا بد لمثل هذا العمل النظري من أن يكون عملا ممنهجا وأن يكون عملا تعاونيا وأن يكون مرسوم الخطى واضح الحدود .. فتتولى مثلا احدى الجامعات التي يكثر فيها هؤلاء اللغويون أمره ، وتندب نفسها له ، وتبدأ معالجتها له في تخطيط له آماده الزمنية وله أعماله التمهيدية وله قدرته على النشر والطباعة .

وبهذا التعرف المتمكن للقديم والجديد نستطيع أن نصل ما انقطع من مباحثنا اللغوية ، وأن نُدْخل الجهود اللغوية المعاصرة ، وأن نتزود بكل ما انتهى اليه الفكر اللغوي في معالجة قضايا اللغة العربية ... وستكون هذه المعالجة معالجة موضوعية علمية لها منطلقاتها من التراث الذي يخالط أعماقنا ومن الجديد الذي أخذ يخالط ثقافتنا .

إن البحث اللغوي لم يعد حديثا من الحدس ،ولا توقعا من التوقع ، ولا ظنا من الظنون ،

وإنما أخذ يعانق الاتجاهات العلمية ويتمذهب بها ويريد أن يندمج فيها ويفيد منها . وكذلك أضحت اللغة ظاهرة من الظواهر تخضع لما تخضع له الظواهر الأخرى في هذا العالم .

على أن هذا كله يجب أن يتم في نطاق ملاحظتين اثنتين :

أولاهما : أن يستقر في أذهاننا أن للغة العربية خصوصياتها الخاصة ، وأن سلامة المنهج العلمي تتوجب على الباحثين العرب أن يلمحوا هذه الخصائص وهذه الفرادة التي للغة العربية سواء في مكانتها أو في واقعها أو في المهمات الاجتماعية التي تضطلع بها .

والثانية : أن نأخذ أنفسنا بالتفريق بين شيئين في اللغة العربية : بين ما هو ثابت وبين ما هو متغير ، بين ما هو من الأصول وبين ما هو من الفروع .. إن رعاية الثابت والأصيل والتفريق بينه وبين ما هو ثانوي أو متحول هو الذي يضمن نجاح محاولاتنا ، وهو الذي يجعل التنظير لمشاكل العربية تنظيرا مثمرا .. ذلك لأن اللغة في الأصل تحمل ضمير الأمة وروحها وتحمل طرائق تفكيرها وتعبيرها ، وتؤلف شرايينها وأوردتها وأعصابها التي تنقل أحاسيسها وانفعالاتها .. ولذلك يجب أن تسلم لها دائما أصولها حتى لا تداخلها الهجنة ولا يتسرب اليها ما يفقدها خصائصها عن طريق البحوث النظرية المجردة .. إن الموضوعية الدقيقة هنا هي في رعاية هذه السمات الجوهرية للغة .

فإذا استوى لنا — ضمن هاتين الملاحظتين — مثل هذا التجديد في البحث اللغوي واغناؤه بمخالطة المعطيات الجديدة ، التي انتهى اليها المنظر اللغوي العالمي ، والتي انتهت اليها التجارب اللغوية فيما نطلق عليه الآن اسم اللسانيات ، فإن تحركنا نحو دراسة قضايا العربية سيكون تحركا منتجا ومثمرا بقدر ما تجتمع له وتلتئم فيه عناصر الأصالة والجدة .

ثانيا — حماية اللغة العربية

هل يخامرنا أدنى شك في أن اللغة واجهت غزوا حادا ، وأنها تعاني من عقابيل هذا الغزو كثيرا من مظاهر الضعف ، وأن الجهود التي تبذل في سبيل نشرها يستنزفها هذا الغزو حتى ليبدو وكأن اللغة العربية تواجه على ألسنة أبنائها جملة من الأزمات .

إن هذا الغزو الذي تتعرض له العربية في أقطارها المختلفة يتخذ وجهتين اثنتين : وجهة داخلية ، ووجهة خارجية .

أما الغزو الداخلي فيتمثل في هذا الصراع بين الفصحى وبين العامية (ظاهرة التفتت اللغوي) .

وأما الغزو الخارجي فيتمثل في هذا الصراع بين العربية وبين اللغات الأجنبية (ظاهرة الازدواج اللغوي) .

ومن الطبيعي أن يكون أول ما يفكر فيه اللغويون حين يتعرضون الى مثل محاولاتنا الحاضرة في النهوض بالعربية واحلالها مكانتها التي يجب أن تكون لها في العقول والألسنة — من الطبيعي أن يكون أول ما نفكر فيه هو حماية هذه اللغة من مثل هذه الهجمات الداخلية والخارجية .. فكيف تتوفر لنا سبل الحماية .

1 — في الصراع بين الفصحى والعامية (ظاهرة التفتت اللغوي)

ليس غريبا ما يعاني أبناؤنا في المدارس والثانويات والجامعات من أمر هذا التقلب والحَيْرة بين الفصحى والعامية .. إن العامية ليست لغة ، ولو استعمل مثل هذا الوصف أحيانا عند اللغويين

المحدثين ، إنها انحراف لغوي قد يكون طبيعيا ولكنه يظل انحرافا مهما يكن من منطقيته أو وضعيته أو طبيعيته .

ويترك هذا الانحراف آثاره الكبيرة في العقول وعلى الألسنة .. ذلك أن العقل حين يأخذ بصوغ أفكاره أو مفاهيمه ، ويباشر التعبير عنها ، يواجه هذه الصعوبات التعبيرية حين تتحير الألسنة في الوجهة التي تتجه نحوها ، في البنى التنظيمية التي تأخذها ، في القوانين النحوية التي تلتزمها .. ومثل هذه اللجلجة ترتدّ مرة أخرى فتفسد التصور الفكري وتورثه نوعا من اللجلجة الفكرية ، وينتهي الأمر الى تغلب إحدى المنظومتين اللغويتين : الفصحى أو اللهجة .

ونحن نحس هذا بوضوح حين يكون الأمر دائرا بين اللغة العربية وبين اللغة الأجنبية .. ولكننا لا نحسه بمثل هذا الوضوح حين يكون الأمر دائرا بين اللغة الفصحى واللغة المحلية .. ومع ذلك فإنه واقع من الواقع تشهد له وتشهد به تجاربنا اللغوية ، وعَيْنا ذلك أو لم نَعِه .

واذن فنحن نهدر جزءا من طاقتنا الفكرية في هذه اللجلجة اللغوية . وما أغنانا أن نتعرض لهذا الصراع بكل آثاره في حياة الطفل والشاب والمثقف .. وما أحرانا أن نجد السبيل الى اكتساب الفصحى من أهون طريق .

إن اللهجات العربية ، ليست حتما من الحتم .. قد يكون وجودها في أي لغة — تحت ظروف معينة — حتميا .. ولكن الخضوع لها ليس قدرنا ولا يمكن أن يكون قدرها .. مهما يكن لهذه العامية من جذور ومهما يحتج لها من يحتج .

ونحن في عالمنا اللغوي العربي أمام هذه الظاهرة ولا بد لنا من معالجتها وأعتقد أننا فرغنا منذ حين طويل من تمثل أضرار المعاينات في الحاضر أو من فداحة أضرارها في المستقبل .. والذين يفكرون في الخضوع لمنطق انتشار اللهجات لا يفكرون في مستقبل عربي موحد .. إن الخضوع للهجات يعني تقنينها ، وتقنينها يعني سيطرتها ، وسيطرتها تعني فقدان أكبر عنصر من عناصر المستقبل العربي السليم .. فاللغة الواحدة هي كل ما أبقت لنا الأيام من وشائج القربى ، ومن الثروة المعنوية .. فإذا جئنا نشرك بهذه اللغات أولادها وبناتها ، كان معنى ذلك أننا نسعى بذاتنا لتخريب ذاتنا : ذاتنا الماضية وذاتنا المستقبلة .

ومن المؤكد أن اللهجات العربية لا تتوزع توزعا جغرافيا بمثل توزع الأقاليم .. فليس هناك لهجة واحدة في اقليم واحد .. وإنما هناك لهجات في كل جزء من أجزاء الاقليم وقد تتداخل وتتشابك .. أفلا يمهد ذلك لسلسلة أخرى من التفتت اللغوي وبالتالي التفتت السياسي ؟

ثم من الذي يقبل الخروج من غِنَى اللغة الى فَقْر اللهجة .. إننا هنا نسمع أحيانا بعض الطرائف عن مظاهر من التعبير باللهجات في الفكاهة مثلا أو في النادرة أو في بعض المواقف الانفعالية الحادة والضيقة .. إن أنصار العامية يجدون هنا ما يقولونه .. ولكننا يجب أن نذكر دائما أن اللغة ليست محدودة بالنادرة أو الفكاهة .. ولكنها فكر وعلم وثقافة وفن .. إنها جهد ابداعي ، وما تقدِر اللهجات على احتماله من هذا الجهد ضئيل ضئيل .

لا بد إذن في معالجة التفتت اللغوي الداخلي وما قد يخلفه من انهدامات خطيرة في الكيان اللغوي ، من أن ندير ظهرنا الى اللهجات .. إنها لا تصلح بدايات ولا مرتكزات .. وما قد تمدنا به أحيانا لا يسمح لنا بأن نتوجه اليها ، وتعاملنا معها يجب أن يكون على أساس الارتداد بها الى أصولها ، ودراسة القوانين التي تحركت بها الفصحى الى أن آلت

اليها .. والعمل على مواجهة هذه الحركة الانحرافية بحركة تصحيحية مماثلة ولكنها مغايرة ومعاكسة في الأهداف .

والسؤال الذي يمكن أن يُطْرح هنا هو : هل يمكن أن يكون هذا العمل اراديا ؟ وكيف ؟

هنا أيضا يأتي دور المدخل النظري الذي تحدثت عنه قبل ، دراسة هذه الظاهرة ومعرفة بداياتها والعوامل التي أدّت اليها ، تمهيدا لدراسة الخطى المضادة التي يجب علينا أن نقوم بها .

واذا كانت الظروف الحضارية السابقة قد سمحت بنشوء اللهجات وانتشارها وتمكُّنها من الألسنة ، فإن الظروف الحضارية الآن بما قدّمت من معطيات تقنية غنية مؤثرة ، في الاعلام أو في التعليم ، قادرة على أن تقوم بعمل معاكس ، وعلى أن ترد الى الفصحى سيادتها الطبيعية .

وسأتحدث عن ذلك في العنوان الذي يتصل بتعليم العربية للعرب .

وكل الذي أريد أن أقوله الآن إننا أمام عوامل مساعدة قادرة على أن تزيح العاميات .. أعدد من ذلك بعضه :

أ ــ المنهج التربوي الذي يدعو الى حفظ القرآن الكريم فى مرحلة مبكرة (يطبق ذلك في بعض أقطار الشمال الافريقي ، وبخاصة المغرب (نظرية الملك الحسن الثاني) .

ب ــ ومن ذلك عملية شكل الكتاب المدرسي وتدرُّج هذا الشكل (مطبق في الشمال الافريقي) .

ج ــ ومن ذلك عمل وسائل الاعلام وسلطانها القاهر، إلى جملة من العوامل الأخرى التي توفرها المعطيات التقنية (الوسائل السمعية والبصرية).. مما يؤدي ، دون شك ، اذا أحسين استخدامه الى تواري العاميات أو تضاؤلها .

2 ــ الصراع بين العربية واللغات الأجنبية (ظاهرة الازدواج اللغوي)

اللغة العربية لا تواجه عداوة بناتها ، اللهجات ، ولكنها تواجه كذلك عداوة ضَرّاتها : اللغات الأجنبية التي قدر لها في بعض ظروف التقهقر السياسي أن تغزو الألسنة وأن تدخل حياة المجتمعات العربية ، وأن تكون لها الغلبة على هذه المجتمعات .

وقد مكن لهذه الغلبة المستوى الحضاري المتقدم لأصحاب هذه اللغات والمستوى الحضاري المتأخر الذي كنا نعيش فيه .. فكان لا بد من تسرب اللغة أولا ثم كان لا بد من انتشارها .

وساعد على ذلك أن القوة المادية للشعوب الغازية كانت وراء هذا الغزو اللغوي وكان في ايمان هؤلاء الغزاة أن القضاء على اللغة العربية قضاء على اللغة والدين معا ، وإنه أقصر الطرق الى الابتعاد بهذه الشعوب عن عناصر الحياة فيها .

وما علينا الآن من هذا الماضي ومن الفلسفات التي كانت تُسَيِّره والغايات المستورة التي كانت تخالطه والنزعات الشريرة التي كانت تتحكم به .. إن أمامنا في الحياة اللغوية العربية هذه الظاهرة : ظاهرة الازدواج اللغوي بما يرافقها من الأوضاع والعلاقات .. فما هو السبيل الى معالجتها ؟ ... هل نتقبل هذا الازدواج ونحن نشاهد ما كان من جَوْره على العربية ، ومن التشتيت المعرفي بين الأقطار العربية ، أثرا لذلك ؟

لا بد من دراسة هذه الظاهرة في كل الأقطار التي تتبدى فيها ، ومعرفة الأشكال التي تتخذها ، ومدى ما يكون من انتشارها وغلبتها .. واذا كان من اليسير أن نتعرف الى نشأتها ، فقد لا يكون ، في

مثل هذه السهولة، أن نتفق على سلبياتها وإيجابياتها، وتقدير هذه السلبيات والايجابيات تقديرا موضوعيا دقيقا، بعيدا عن المجازفات والاندفاعات.

إن هذه الظاهرة بما كان من تأثيرها في الصلات الثقافية بين الشرق والغرب استطاعت أن تجتذب للدفاع عنها بعض المفكرين، فقد أخذوا بما كان من فائدتها، وغفلوا عمّا كان من أضرارها في فقدان التعاون على عمل علمي عربي فكري مشترك .. ولذلك وجدت أنصارا لها ومؤيدين .. بل ووجدت من يحتجّ لها ويصطنع أنواعا من النظر لتثبيتها في الحياة الفكرية العربية.

إن تعلم اللغات الأجنبية، والالتقاء بها في ميادين الفكر، والافادة بها ومنها في الحركة الثقافية أمر لا تداخله الشكوك .. ولكن كيف ننظم هذا الاتصال؟ والى أي مدى نتيح للغات الأجنبية أن تخالط حياتنا؟.. ثم ما هي اللغة الأجنبية التي تُؤثر؟ هل نتقبل هذا التكثر من هذه اللغات في عدد من البلاد العربية دون أن يرافقه شيء من تخطيط أو تنظيم؟.

وثمة جملة من التساؤلات التي ترافق هذا الموضوع وبعضها يضرب في صميم المشكلة كما هو شأن السؤال التالي:

هل من المصلحة العربية العلمية والاقتصادية أن نسوق الطلاب جميعا الى تعليم اللغة الأجنبية أم أن هناك أساليب أخرى لتحقيق الانفتاح الثقافي؟ (تجربة الصين في الاقتصار على مجموعة مختارة من الطلاب يدرسون اللغة الأجنبية ثم ينصرفون بعد ذلك الى الترجمة) ..

ثم ما هو مردود التجارب العربية في تدريس اللغات الأجنبية؟ وهل حققت أغراضها أم أنها كانت حِلْية خارجية لم يكن لها عميق أثر؟.. وهل من الأفضل الابقاء على الأوضاع الحالية في تدريس اللغة الأجنبية أم تحويل هذه الساعات الى فروع مجدية من فروع المعرفة المتكاثرة التي تدق أبوابنا في كل لحظة بالحاح؟

هذا وللقضية وجه آخر يتعلق باللغة العلمية المرتقبة في البلاد العربية .. ذلك إن انتشار البعثات العربية في مختلف البلاد الأوربية والامريكية، في البلاد الصغيرة والكبيرة في البلاد ذات اللغة العالمية والبلاد ذات اللغات الثانوية، من ألبانيا وبلغاريا الى روسيا وأمريكا — إن هذا الانتشار العريض سيضعنا أمام فقدان اللغة العلمية المشتركة التي يمكن أن يتفاهم بها الاختصاصيون المرجوون لنهضتنا .. وسيتحدث المهندس المتخرج من بلغاريا لغة غير التي يتحدث بها المتخرج من الدانمارك أو بلجيكا .. واذا كنا نعاني حتى الآن اضطرابا قويا في مؤتمراتنا العلمية بين الفرنسية والانجليزية ... فماذا يكون الشأن خلال السنوات القريبة المقبلة؟

إن قضايا الازدواج اللغوي لتتعقد وتتشابك .. وإنها لتؤلف واحدة من كبريات قضايا اللغة العربية، وبخاصة حين نتبين آثارها على اللغة العربية وآثارها على الثقافة العربية، وانعدام التوجيه والتعاون فيما بين البلاد العربية.

ولذلك يبدو أن طرح هذا الموضوع للمدارسة والمناقشة واتخاذ موقف منه أمر لا مندوحة عنه.

وبعد، فإن هناك أمرين يتهددان العربية ويتطلبان حمايتها: اللهجات من الداخل، واللغة الأجنبية من الخارج .. وحين نعالج قضايانا اللغوية فنحن مضطرون الى الأخذ بمبدأ تقديم الوقاية على العلاج .. ولهذا تبدو حماية العربية من هذين الخطرين الداخلي والخارجي ومواجهة غزوهما مقدمة على معالجة قضاياها الأخرى .. فهذه المواجهة تعني الحفاظ على وجود اللغة وتدارك هذا الوجود بكل

مقومات القوة قبل العناية بمشاكلها الأخرى .. على أننا سنرى أن قضايانا العربية متداخلة وأن العمل لها يحسن أن يكون لكل قضاياها في مستوى واحد .

ثالثا — نشر العربية

في موضوع نشر العربية نواجه قضيتين : إحداها تعليم العربية للعرب الناطقين بها. والأخرى : العربية لغير الناطقين بها.

1 — تعليم العربية للعرب

لعل هذا الموضوع أن يكون صلب المواضيع التي تواجهها العربية في أوطانها وبين أهليها .

ذلك أن تعليم اللغة العربية لقي منذ قرن تقريبا ولا يزال يلقى كثيرا من عناية الباحثين والدارسين .. وكان انتشار التعليم حافزا لعقد كثير من الندوات والمؤتمرات حول ما أطلق عليه صعوبات ومشاكل في تعليم العربية ..

وعلى مدى عقود طويلة تتابعت جهود الأفراد والحكومات والمؤسسات على هذا الموضوع ، وعُنيت به مجامع اللغة ووزارات التربية ومؤتمرات التعليم المختلفة .. وألّفت فيه رسائل وأطروحات في كليات كثيرة من كليات التربية .

وقد نُظر الى هذا الموضوع كله من زاويتين : — زاوية تربوية أرادت أن تسخر معطيات التربية ونظرياتها لتيسير تعليم العربية .

— وزاوية لغوية أرادت أن تنظر في علوم اللغة العربية نفسها : ماذا نقدم منها للطلاب ؟ وكيف نقدمه .

وفي كل ذلك كانت المشكلة الكبرى هي كيف نستطيع أن نعلّم الطلاب اللغة العربية بحيث يصبحون قادرين على التكلم بها وعلى حسن استعمالها في الكتابة وعلى تجنب الأخطاء في هذا الاستعمال .

ولكن شطرا من هذا الهدف ، وهو التكلم بالعربية السليمة ، أضحى صعبا على التحقيق ، وبدا وكأنّ أصحاب العربية — نزلوا عنه ، وأخذوا يقصرون جهودهم على حسن استعمال العربية في الكتابة .

ولكن المتتبع يلاحظ أن الشكوى لا تزال كبيرة ، وإن نتائج هذه المحاولات كلها لم تكن إيجابية دائما ، وأن العربية تتقهقر على الأقلام كما تقهقرت على الألسنة .. وأن جيلا مضى هو خير من جيل يأتي بعده .. ونحن لا نزال نعقد الندوات ونؤلف الكتب ونطور البرامج كما كنا نفعل .

هذا هو الموضوع وهذه هي المشكلة ، فما هي الحقيقة الأساسية في معالجته ؟.. كيف نضمن نجاح الجهود المبذولة في المدارس في نطاق اتقان العربية ؟ وكيف نجعل النتائج في ذلك كفاء الجهود المبذولة ؟.. لماذا تظل الشكوى تتصاعد أو تزداد ؟

رأس المشكلة يتمثل في وجود الصراع بين العامية والفصحى .. اللغة التي يتعلمها الطالب العربي هي غير اللغة التي يسمعها في البيت أو الطريق .. وما يسمعه من مُعلّم العربية غير الذي يسمعه من معلم الجغرافية .. بل إن معلم اللغة العربية يعلمه أشياء ويستخدم أشياء غيرها .. كل شيء حول العربية في الفصل ، مضاد لها في البيت والمدرسة والشارع وكأنما هناك هذه القربة المقطوعة تُملأ من أعلاها فينهمر الماء من جوانبها المهترئة والممزقة .. المدرس يشحن طلّابه بمعلومات وقواعد .. ثم لا يلبث ذلك أن يتسرب بعيدا عن منطقة اهتمام الطالب واستخدامه وتسخيره .

المعالجة هنا لا يكفي أن تمضي وفاق ما نعمل منذ قرن أو حول ذلك .. فمثل هذه الأساليب لم تؤدّ — رغم كل ما بذل في سبيلها — الى خير .. فهل هناك وضع مقلوب لم نحسن النظر اليه ؟

تلك هي المسألة كما يقولون .. هناك حقا وضع مقلوب يحتاج الى النظر فيه قبل أن نتحدث عن أي اصلاح فرعي آخر .. والأمر في تقديري يتجاوز ، أو يجب أن يتجاوز محاولات الاصلاح الى محاولة ثورة شاملة .

ومنطق هذه الثورة ، كما تتراءى لنا ، إننا نحاول تعليم اللغة العربية ولكن الذي يجب أن نحاوله في الحقيقة إنما هو اكتساب اللغة العربية ، وأن تكون هذه المحاولة على كل نطاق ، في انسجام كامل بين المدرسة والمجتمع من حولها .. وبين المدرسة وكل وسائل الاعلام .

اكتساب اللغة هو الهدف لا تعليمها .. والاكتساب لا يكون في ساعة واحدة من ساعات الليل والنهار ، ولا يكون في بيئة ضيقة صغيرة اذا قيست بالبيئات الطويلة العريضة التي يتقلب فيها الانسان العربي .

اكتساب اللغة هو معرفة أقصر الطرق الى ممارستها في كل حالات الوجود اليومي وفي كل المواقف والمواقع .. وما نفعله الآن لا يعدو أن يكون تعليما جزئيا يرمي به الطالب فور خروجه من قاعة الامتحان .. هذا اذا استطاع أن يحمل منه شيئا .

وللتعليم أساليب ، ولكن للاكتساب أساليب أخرى .. التعليم عملية اضافية تضاف الى الانسان ، والاكتساب عملية تريد أن تكون طبيعية ، أن تكون جزءا من الانسان جزءا عضويا منه .. في التعليم نوع من القَسْر ، أما في الاكتساب فهنالك رغبة في الحصول على العقوبة .. في التعليم تنافر بين اللغة وبين المحيط وفي الاكتساب نسعى الى هذا التآلف بين اللغة والمحيط .

وفي مثل هذا الانتقال من التعليم الى اكتساب اللغة يحتاج الأمر الى كثير من الدراسات والى كثير من الافادة من تجارب الآخرين .

إن العمل هنا يتلاقى أو يتصل بالعمل على محو التناقض بين العامية والفصحى وذلك بطبيعة الحال يقتضي كثيرا من الجهد في دراسة العامية والارتفاع بها عن أن تكون انحرافا وردها الى أصولها التي جاءت منها .

إننا هنا كذلك في حاجة كبيرة الى معرفة تجارب الشعوب الأخرى في هذا الموضوع فكيف تعالج مثل هذه التناقضات وكيف تتغلب عليها ، وهل تتشابه العربية في ذلك مع اللغات الأخرى ؟ أم إن لها وضعا متميزا ، وما هو وجه هذا التميز وما شأنه ؟

وواضح أن الأمر هنا لا يتعلق بالمدرسة وحدها .. إنه يتعلق بالمحيط .. ومن هنا تأتي ضخامة العمل وصعوبته وجديته .. إنه ليس توصية ولا تمنيا كما تعودنا أن نفعل ولكنه يجب أن يكون إرادة واعية تتجاوز الأساليب التقليدية الى ما يشبه الثورة في سبيل هذا الهدف الغالي .

وما لم تجتهد في التحول من التعليم الى الاكتساب فان قدرا كبيرا من طاقاتنا اللغوية سيظل مهدورا ، وسنظل نُخُبّ ونَضَعُ في ذات المشكلة : كيف نعلم القواعد ؟ ما هي المقادير ؟ ماذا نحذف ؟ ماذا نبقي ؟ وسيقتصر عملنا على أن يكون عملا جزئيا : إلغاء قسم من المقرر ، والتساهل في قسم ، وتبسيط قاعدة وايجاز أخرى ، دون كبير محصول .

إن العمل على إكتساب العربية في مواطنها وبين أبنائها هو أبرز ميادين العمل لخدمتها واستمرارها وتحدّيها .. وحين يؤمن قوم بلغتهم ايمانا

صادقا عمليا وحين يمارسونها ممارسة سليمة ، فإن ذلك أول مراحل الحفاظ عليها من جهة وتمهيد الطريق أمام تطورها من جهة أخرى ، تطورا ينبع من ثنايا الاستعمال والتطبيق ، لا من خلال التهويمات النظرية .

2 ـ تعليم العربية لغير العرب
أ ـ الشعوب الاسلامية

هل العربية لغة العرب وحدهم ؟ أم أنها كذلك ـ أو يجب أن تكون ـ لغة الشعوب التي تدين بالاسلام ؟

في صفحات مضت تحدثت عن الطموح الكبير الذي يساور الأجيال الاسلامية الصاعدة لتكون العربية لغة مشتركة بينها ، اشتراكها بالكتاب الكريم والدين الحنيف .

ولقد انتشر الحرف العربي في كثير من المناطق الاسلامية ، وكان له فضل تقريب ما بين هذه الشعوب .. واذا كان العرب خسروا في الماضي انتشار اللغة فقد احتفظوا ببعض المواقع الحصينة حين احتفظ الحرف العربي والصوت العربي بمكانه عند هذه الشعوب .

هذا الكسب يجعل أمر التواصل بين هذه الشعوب واللغة العربية أمرا ميسورا ممهدًا .. ومن هنا تنشأ الحاجة الى دراسة انتشار العربية بين هذه الشعوب .

وقد يكون الموضوع ، في جانبه العملي ، في حاجة الى كثير من التمهيد النفسي والاجتماعي ، نفيد فيه من كل المعطيات والمشاعر الدينية والتاريخية .. ولكننا في هذا البحث لا نعرض لذلك ولا نتوقف عنده وإنما ننظر الى الأمر من زاوية واحدة هي كيف يمكن أن يكون هذا التعليم ، حين تمهد أسبابه ، تعليما منتجا ميسورا .

إن تجارب الشعوب الأخرى في نشر لغاتها تجارب حافلة بالكثير : هناك تجربة تعليم الانجليزية أو تعليم الفرنسية وتجارب أخرى ، وهناك المجالس التي تقتصر جهودها على ذلك وتنهض بالعديد من الدراسات وتُعدّ الخطط وتستخدم ، ما استطاعت ، من التقنيات الحديثة سعيا وراء تحقيق النتائج الأفضل .

ولكن العمل في صلبه ليس عملا دعائيا ، وإنما هو عمل علمي فني تربوي ، يستند الى دراسة لأصوات اللغة العربية ومقارنتها بأصوات هذه الشعوب ، فإذا انتهى الى شيء من اضافة أو تعديل عمد الى اختيار الطرق الأفضل مستخدما التجارب والاحصائيات ..

إن تعلم اللغة واكتسابها بالنسبة الى الكبار غيره بالنسبة الى الصغار ، والدراسات البيولوجية تدل على أنه في سن معينة يستطيع الانسان (الطفل) أن يكتسب اللغة في مثل لهجة أصحابها ... أما بعد ذلك فلا بد أن تداخله في هذا الاكتساب بعض اللكنة .. وهذا أحد وجوه المشكلة .

ولكن المشكلة الأكبر هي : كيف نستفيد من الرصيد اللغوي العربي في لغات هذه الشعوب الاسلامية وعلى ألسنتها من خلال حفظها لبعض آيات الذكر الحكيم .. لقد حملت هذه اللغات كثيرا من المفردات العربية ، كما حملت العربية مفردات منها ، وبقي على ألسنتها تعابير وألفاظ قرآنية ، ولا بد هنا أن تكون هذه المفردات والتعابير فقط ارتكاز في هذه العملية اللغوية الجديدة .

وهذا يعني أننا لا نستطيع أن نتقبل التجارب الأخرى اللغوية ، الانجليزية أو الفرنسية ، بل لا بد من أن نلاحظ علاقات التاريخ اللغوي بين هذه اللغات وبين اللغة العربية .

واذن فهناك أساسان في معالجة الموضوع :

1 ــ التمهيد النفسي الذي يفيد من تسخير المعطيات التاريخية والدينية.

2 ــ التمهيد العلمي الذي يفيد من دراسة العلاقة اللغوية السابقة.

ثم تأتي بعد ذلك الدراسات الاحصائية والاختصاصية .

ب ــ الشعوب الاسلامية التي لم تحتفظ بالحرف العربي أو لم تستخدمه

على أننا نتحدث عن الشعوب الاسلامية التي احتفظت بالحرف العربي ، وعلينا أن نتذكر ونحن ننظر الى آفاق اللغة العربية في قرن هجري جديد ــ الشعوب الاسلامية الأخرى التي أهملت الحرف العربي أو التي لم تستخدمه : أردتُ الاشارة الى الشعوب الاسلامية في افريقية التي لم تُسَجّل لغاتها بعد أو التي لم تستعمل الحرف العربي .

والموقف هنا بالنسبة الى اللغة العربية موقف يقتضي كثيرا من الاهتمام .

مصدر هذا الاهتمام المقولة التي تذهب الى أن افريقية هي قارة المستقبل والى أن النزاع المستحكم حول افريقية أو المشاكل الافريقية مردّه الى هذا النزاع على المستقبل .

وتجربة انتشار الاسلام في افريقية حملت معها بالطبيعة القرآن الكريم ومع القرآن الكريم العربية ، شفويّة أحيانا ومكتوبة أحيانا أخرى .. ولا بد لهذه الشعوب من أن تخطوَ بعض خطاها على طريق الحضارة ، ومع الحضارة الكتابة ، ومع الكتابة الحرف واللغة .. أفليس من مصلحة العربية اذن أن تنظر الى هذا الرصيد الذي لها في القارة الافريقية تحاول أن تنميه وأن تستثمره وأن توظفه في الحركة الحضارية التي تنهض لها افريقية ؟.. وهل هناك شعب آخر أحق أن ينهض بهذه المهمة الحضارية من الشعب العربي ؟.. إن صلاته : صلات الموقع والتاريخ وقرابة الجنس أحيانا وانتشار العقيدة ــ تحتم كلها أن يكون العرب هم أصحاب الخطْوة الأولى .. بل إن النظرة البعيدة للمستقبل ــ وهذا هو الذي تحتاج اليه السياسة العربية ــ توجب أن تكون اللغة العربية هي السفير بين العرب وبين المستقبل ، وأن يكون الهاجس الافريقي هو الذي يسكن الحياة العربية ويحرك بعض اتجاهاتها واندفاعاتها نحو هذه القارة .. ولقد بدأت هذه الدوافع منذ بدأ الصراع بين الرئيس عبد الناصر وبين اسرائيل في افريقية ، في مشاريعها وعلاقات دولها واتجاهات هذه العلاقات .

إن أمام العرب سلاحا آخر ليست له رائحة البترول ، وليس شيئا من مشتقاته .. إنه اللغة التي تتابع عمل الدين حينا أو تمهد له حينا .. وعلى المهتمين بالعربية أن يبدؤوا منذ الآن براجحهم لتأهيل هذه اللغة لتكون هي التي تجري بها ألسنة الناس في طرفي افريقية شمال الصحراء ، وافريقية جنوب الصحراء .

وبعدُ ، فهو عمل علمي واسع عريض يجب أن تتعاون عليه الدوائر اللغوية العربية مع منظمات اسلامية كثيرة وأن تسبقه دراسات تفصيلية وأن تُهيَّأ له أعداد كبيرة من الذين ينقطعون للشؤون الافريقية واللغات الافريقية .

واعداد برنامج مفصل لذلك هو الطريق الى انجاحه وإثماره .

* * *

وبعدُ ، فقد تحدثنا في نطاق نشر العربية عن تعليم العربية للعرب الناطقين بها وعن تعليمها لغير

الناطقين بها ممن يستخدمون الحرف العربي أو ممن لم يستخدموه .. من الشعوب التي اعتنقت الاسلام في آسيا وافريقية ومن الشعوب الافريقية الناشئة التي أخذت تلامس الاسلام وتعانقه .

3 ـ المصطلح العلمي

قد يبدو الموضوع متصلا بالعربية وأهلها فحسب ، وقد يتراءى أنه ــ حتى في هذا النطاق ــ موضوع جانبي .

والحق أنه يمثل نوعا من مشاغل العربية وهمومها ويرتبط بجملة من هذه الهموم .. فهو من ناحية استكمال لانتشار العربية داخل الوطن العربي ، وهو من ناحية أخرى ، استيفاء لعوامل نشرها خارج البلاد العربية ، ثم هو ، من ناحية ثالثة ، محاولة لمطاردة الازدواجية اللغوية في أرقى الطبقات العلمية العربية .

ذلك أن الخريطة اللغوية في الوطن العربي خريطة معقدة .. فالعربية تنفرد في بعض السنوات الأولى الابتدائية ، في بعض الأقطار ، ثم تشاركها الأجنبية (الفرنسية أو الانجليزية) .. ثم تمتد هذه المشاركة حتى تنفرد الأجنبية في بعض مراحل التعليم الثانوي أو تنفرد في تدريس بعض المواد .. حتى إذا كانت المرحلة الجامعية غلبت اللغة الأجنبية في التدريس الجامعي في كثير جدا من الأقطار العربية في افريقية وآسيا .. لا نستثني إلا القطر السوري الذي تُدَرَّس فيه المواد كلها ، العلمية والأدبية ، في كل مراحل التعليم : الابتدائي والثانوي والجامعي باللغة العربية .

هذا الوضع المتنافر قاد اليه ونتج عنه ، في آن واحد ، غياب المصطلح العلمي العربي .. وشغلت قضية هذا المصطلح جهود جماعات وأفراد على طول البلاد العربية وعرضها في نطاق الجامعات والمجامع ، بعيدا عن التدريس أو في نطاق التدريس .. ولعل البذرة الأولى لتأسيس المجامع اللغوية العربية كانت قضية المصطلح .. كان ذلك في الشام وكان كذلك في مصر ، ثم تتابع في العراق والأردن .

قضية المصطلح العلمي تختزل قضية أخرى وراءها هي قضية التعليم الجامعي .. وقصة التعليم الجامعي تثير قضية التقدم العلمي ، وقصة التقدم العلمي تثير قضية اللغة المشتركة بين العلميين العرب ، وقضية العلميين العرب وتعاونهم هي ، في جوهرها ، قضية دخول العرب في ميادين الحضارة : متابعتهم لها وإسهامهم فيها .

ومن هنا كان من حق القضية (قضية المصطلح) أن تستبدّ بجهود كثيرة ، وأن تعقد لها جملة من المؤتمرات ، وأن تتلاقى عليها لجان وندوات ، وأن تؤلف عقدة العقد في التعليم العربي الجامعي .

وأيا كانت الظروف التي تتحكم في بعض الأقطار ، والتي تحول بينها وبين اقرار التدريس بالعربية ، فإن المسلمات النفسية والعلمية وتجارب منظمات دولية كالاونسكو ، وضرورات حيوية كالضرورات التي تحيط بالحياة العربية تتظاهر كلها على أن حظ التعليم ، بلغة البلاد نفسها ، من النجاح فوق حظوظه حين تكون باللغة الأجنبية .. وقد استقر الأمر على هذا .

غير أن هذه المسلمات لا تستطيع أن تكون لها الغلبة ... فظروف الواقع أحيانا تتخطى هذه المسلمات وتغالبها فتغلبها .. وهذا هو الواقع العربي في بعض الأقطار ولذلك كان لا بد من مقابلة هذا الواقع ، ومواجهته بواقع مثله ، يقطع الطريق على الظروف المستحكمة الشاذة ويبادر الى حل عقدها .

ومن هنا كان وجود المصطلح العلمي العربي وانتشاره ووضعه موضع الممارسة والاستعمال في

الحياة العامة هو الرد الايجابي على الوضع الخاص الذي تعيش فيه بعض الجامعات في بعض الأقطار العربية .

والتجارب الكثيرة الغنية التي مرت بها المؤسسات اللغوية خلال ثلاثين عاما أو تزيد ، والتجربة السورية الغنية ، كلها تؤكد القدرة العربية على تجاوز هذه المشكلة وطيها .

ولكن القضية اللغوية هنا لها وجه آخر .. وهو أن الجهود اللغوية في ذلك تعاني نقصين كبيرين أحدهما أنها غير معروفة ولا مبذولة بقدر الحاجة اليها ، في الوطن العربي .

والآخر أنها غير منسقة بقدر ما تحتاج اليه من تنسيق بين قدرات غنية متباعدة في البلاد العربية وفوق هذا وذاك فهي تحتاج الى قرار سياسي يحطم العقبات الواقعية وحالات التردد ، وصعوبات التغيير .

عن النقص الأول يمكن للانسان أن يتساءل : من الذي يملك مجموعة المصطلحات التي أقرها مجمع اللغة العربية في القاهرة أو محاضر جلساتها ؟

عن النقص الثاني : ما هو مدى التنسيق بين المجامع اللغوية وما هي خطوات هذا التنسيق .. ثم من يقول الكلمة الأخيرة ويحق له ادعاؤها .. وأخيرا من الذي يأخذ بهذا التنسيق أو ما هي السلطة اللغوية القادرة ؟

على أننا لسنا هنا في مجال التفصيل بقدر ما نحن في محاولة لمس المشكلات والاشارة اليها .

وأيا كان الأمر فإن الذي وصلنا اليه في نطاق المصطلحات لا يزال دون ما يجب لنا ، ولا تزال المصطلحات الأجنبية تتوالد بنسب عالية — نتيجة للتقدم العلمي والفني — حتى لا تكاد اللغة العربية تلحق بها .

والأمر ، في جملته ، يحتاج بعد القرار السياسي الى قرار أكبر من التعاون ومن التنسيق .. كما أنه يحتاج الى عمل في ميدانين متكاملين .

أحدهما : العمل في نطاق التراث لمعرفة كل ما فيه من مصطلحات وهو شيء كثير غزير .

والآخر : العمل في ملاحقة المصطلحات الحديثة وتمهيد الطريق أمام دخولها اللغة العربية .

إن وجود المصطلح العلمي في لغة يعبر عن مدى قدرة هذه اللغة على استيعاب الجديد ، وعلى مدى مداخلة هذا الجديد للحياة العامة في هذا البلد .

وقد تنبه لخطر المصطلحات الأجنبية أقطار كبيرة لها لغاتها وحضاراتها .. كم حدث في فرنسا في السنوات الأخيرة إذ أخذت دوائرها اللغوية تشكو من طغيان المصطلح الانجليزي والمفردات الانجليزية الى حد أصبح يهدد الفرنسية .. ودعت الى الوقوف في وجه هذه التيارات الوافدة والى تدخل السلطة وإقرار بعض القوانين للحفاظ على بقاء الفرنسية .

المصطلح العلمي إذن وجه من وجوه قضايا اللغة العربية في تقدمها الحضاري ، وفي صفاء اللغة ، وفي تعاون العلميين من أبنائها ، وفي تأكيد الذات العربية واللغة العربية في المجالات الحضارية المختلفة .

رابعا — وسائل

سأتعرض في الحديث عن هذه الوسائل الى ثلاثة من الأمور :

1 — الطباعة العربية
2 — المعجم العربي
3 — وسائل الاعلام واللغة العربية .

1) **الطباعة العربية :**

يؤلف الحرف العربي آصرة قوية بين الشعوب العربية .. ويمثل وحدة هذه الشعوب بمعنى من معاني الوحدة .

وقد كانت المطبعة عاملا من عوامل النهضة العربية في القرن الماضي ، وسببا من هذه الأسباب التي وصلت مشرق الوطن العربي بمغربه .

غير أن الطباعة حققت في العقد الأخير قفزات نوعية واتجهت نحو مزيد من الآلية واستخدمت فيها التقنيات الحديثة فأصبحت عملا آخر غير الذي كان .

وكان في المطبعة العربية بحكم وضع الحرف العربي وتنوع أشكاله حسب موقعه من الكلمة ، أولا أو وسطا أو أخيرا أو منفردا ، أنواع من التعقيد تمثلت في كثرة أشكال الحروف وتعدد ملامسها على الآلة الراقنة وتعدد فراغاتها على صندوق المطبعة .

وقد خضعت هذه القضايا لأنواع من المعالجات غير أن تقدم التقنيات الحديثة في الطباعة سبق هذه المعالجات وفرض علينا وضعا جديدا هو تطويع هذا الحرف للأجهزة الالكترونية .

وقامت في ذلك محاولات معروفة أبرزها محاولات القاهرة والرباط ، وهي محاولات تصادمت أحيانا وأوشكت على الالتقاء أخيرا .. ولا بد من العمل على التقائها والسير في خط واحد حتى لا تصاب العربية في عمودها الفقري .

ولا يكاد عمل المنظمة يخرج عن نطاق هذا التوفيق ، ومراعاة الأمور الأربعة التالية :

1 — الجوانب التقنية التي ستساعد فيما بعد على التخزين والاستعادة والترجمة الآلية .

2 — الجوانب الجمالية ، فلا تسيء التقنية الحديثة الى جمالية الحرف العربي .

3 — الاستمرارية : فلا يتباعد في العين بين ما هو مألوف في كل الكتب التي بدأت طباعتها منذ انتشار الطباعة وبين الشكل الجديد .

4 — أن نتجنب الوقوع تحت تأثير شركة واحدة أجنبية في اصطناع ما نحتاج اليه حتى نقطع الطريق على التنافس بين الشركات وتتحكم في قضايا الثقافة العربية .

2) المعجم العربي :

تختزن المعاجم في العادة روح الأمة وتقاليدها ومشاعرها وفكرها .. إن الالفاظ والصيغ ليست أشياء ساكنة هامدة وإنما تمور بحركة داخلية لأنها رموز لكل ذلك .. وعلى هذا فإن المعاجم هي تاريخ الأمة بمعنى من معاني التاريخ .

وكل حركة لغوية تكاد تجد منطلقها الأول في المعاجم .. سواء أكانت : حركة إحياء أم حركة تطوير وتصحيح .. وحين نقرر مبدءا نظريا ما فنحن لا نستطيع تقدير هذا المبدأ وتقييمه إلا بعد استشارة المعاجم واستقراء ما فيها .

ومعاجمنا العربية الحالية في حاجة الى هذه الأمور :

أ — طباعة ما لم يطبع منها .
ب — اعادة طباعة ما طبع .
ج — اعادة النظر في أساليب الاستفادة منها .

ولا بد أن تكون معاودة طباعة هذه المعاجم على نحو يتيح لنا بعد ذلك استخدام معلوماتها استخداما آليا بحيث نستطيع أن نستعين بها على البحث النظري .. فنجمع مثلا الأصول الثنائية والأصول الثلاثية عندما نحتاج اليها في دراسة هذا الموضوع ونجمع الصيغ والأبنية والاستعمالات المختلفة حين ندرس هذه الأشياء لتكون مادة أولية للدراسات اللغوية المختلفة .

وسيسوقنا ذلك الى طائفة من الأعمال الاضافية في عرض هذه المعاجم كأن نحتاج الى تفسير كثير من المصطلحات ، والى استخدام بعض الصور ، والى استقراء ما تبقى من هذه المسميات في هذه البيئة أو تلك .

وتطالعنا في قضية المعاجم هذه ، غياب خطة محكمة في نشرها والاستفادة منها . فالمعجم الوسيط مثلا الذي وضعه مجمع اللغة العربية في القاهرة ليكون بين يدي كل مثقف عربي ، يُعَوَّل عليه ويحتج به ويتعلم منه ، لا يزال — وهو الأمر المؤسف — محدود الانتشار على حين كان من الواجب أن يكون في كل يد وعلى كل مكتب ، وأن ينشر بكل أسلوب من أساليب النشر : صغير الحجم أو كبيره ، رقيق الورق أو غليظه ، متوسط الحرف أو دقيقه ..لأنه جهد رائع ، ولا بد لنا من متابعة هذه الجهود ونشرها لتوكن الفائدة منها على أوسع نطاق .

هذا في نطاق ما بين أيدينا من معاجم ، ولكننا نتطلع الى ما ليس في أيدينا ..

نتطلع الى معجم تاريخي يضع للفظة تدرج معانيها في الاستعمال ، ويعرض هذا التدرج مقرونا بشواهد ، وهو عمل ضخم وكبير ، ولكن أهميته تُضائِل من شأن كل جهد أو نفقة في اعداده .

ونتطلع كذلك إلى معجم تاريخي يورد أقوال اللغويين ضمن تتابع تاريخي فلا يذكر رأيا للغوي متقدم ، سابقا على رأي للغوي متأخر .

ونتطلع الى ترجمة بعض المعاجم التي وضعها بعض المستشرقين .

وهناك معاجم أخرى وظيفية لا بد لنا من أن نحاول صنعها تسهيلا على الذين يريدون أن يستخدموا العربية .. فنحن ، مثلا ، نشكك في حركة عين المضارع ، ونشكك في تحديد حرف التعدية (حروف الجر) ونتردد في استعمال بعض الصيغ ، ونحن نجهل أصول الاشتقاق فلا نعرف موضع الكلمة من المعجم ، ونحن لا نعرف بعض البُنى وبعض القوانين .. ولا بد من أن تؤلف لذلك كله معاجم مختلفة تساعد على تبينه وتسهل وضعه موضع الممارسة والاستعمال .

إن العمل المعجمي لا يمكن أن يترك لجهود محدودة توشك أن تكون فردية أو ضعيفة الفعالية .. ولا بد فيه من مؤسسات تعمل كخلايا النحل في كل اتجاه .. وقد أصبح عمل المعاجم صناعة من الصناعات وعلينا أن نفيد في ذلك من تجارب بعض المؤسسات في الأقطار الأوربية أو الامريكية ..

واستخدام التقنيات الحديثة في طبع هذه المعاجم وفي طباعتها سيساعد الى حد كبير على تحقيق جملة من الغايات التي نتطلع اليها .

ولا بد في ذلك من برمجة متقدمة تختصر من الجهد الانساني وتفيد من التقدم الآلي والالكتروني في تخزين المعلومات ثم استخدامها عند الحاجة .

3)وسائل الإعلام واللغة العربية

ثمة ما يشبه الاجماع على ان في وسع وسائل الاعلام أن تنهض بالشعوب ، في مجال التعليم ، من أدنى الدرجات إلى أرفعها..وأنها ، بمداخلتها للحياة في كل بيت وفي كل ساعة ، قادرة على أن تحقق أبعد مجالات التقدم والتنامي .

وثمة أيضا ما يشبه الاجماع إلى أن وسائل الاعلام لا تُستخدم استخداما مفيدا أو منتجا في الوطن العربي... وانها إلى المتعة أقرب منها إلى الفائدة . وإلى إضاعة القوت أقرب منها إلى الاستفادة من الوقت ، وأنها إلى العمل السياسي أدنى منها إلى العمل العلمي الأساسي الدائم .

وفي نطاق اللغة وحدها ثمة كذلك ما يزيد

على الاجماع في أن أي تحرك لغوي في أي اتجاه ، يستطيع أن يجد من وسائل الاعلام ركائز نجاحه ووسائل هذا النجاح... وان هذه الوسائل ليست جزءا إضافيا على برامج نمو اللغة ونشرها ، وإنما هي في صلب هذه البرامج : وجودُها يضمن نجاح هذه البرامج وعيا بها نذير افلاسها... فقد حققت بعض البرامج والأعمال الفكرية التلفزيونية مثلا — وهي برامج مدروسة — أطيب النتائج وأبعد الغايات التربوية والتعليمية .

ولا ينقص الوطن العربي استخدام هذه الوسائل ، وإنما ينقصه حسن استخدامها ...وما أروع ما قامت به هذه الوسائل في تقريب ما بين اللهجات ، والتقدم خُطىً نحو الفصحى وإشاعة بعض التعابير الجميلة ، والتعريف بالتراث وتقريبه من العقول والأذهان... وما أسوأ ما قامت به أحيانا من إشاعة الخطأ والترويج للأغلاط بالسكوت عنها أو بالحرص على استعمالها .

إن التقنيات الحديثة في وسائل الاعلام تضع بين يدي الشعوب المتحركة سلاحا قويا، وجدير بهذه الشعوب أن تحسن الافادة منه ، اختصارا للزمن وضمانا للنتائج .

ولست لأفيض في هذا الموضوع الآن... ولكني أعلم أن مجامع اللغة العربية اقترحت أن يكون موضوع ندوة قريبة لها...

خاتمة وإيضاح :

وبعد ، فهذا تصوّر لحركة اللغة العربية في آفاق قرن هجري جديد ، وضمن احساس حاد بالمسؤوليات التاريخية الصعبة الملقاة على عاتق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

إن كل كلمة في هذا العرض تنبع من الاحساس بهذه المسؤولية والعمل على النهوض بها أو التوجه نحو القيام بها .

وإذا كانت الشعوب العربية ، أو الحكومات ، خسرت العمل السياسي المشترك ، فإن ذلك لا يدعو إلى شيء من اليأس لأنه لا يزال في مكنتها أن تعمل في النطاق الآصل والأعمق والأشدّ تأثيرا والأبعد عن الخلاف .. إنه لا يزال بين أيديها أن تعمل في نطاق ثقافي موحَّد لا يماري في وحدته أحد ، ولا يخضع لاجتهادات ومناورات .

وعلى نحو ما كان في مطلع حياة جامعة الدول العربية من التركيز على العمل الثقافي ، فإن الجامعة جديرة أن تتابع هذا الذي كان بالدعم والبذل ، وأن تنظر أين توقف وكيف ؟ وما هي الاتجاهات التي ناقضته وحالت دون تحقيقه .

ملاحظات حول أسئلة مقدّرة

1 — ليس من شأن أحد يتعرض لموضوع اللغة العربية أن يدعي القدرة على الاحاطة بكل شؤونها .. إن اللغة أبرز ظواهر الحياة الاجتماعية والفكرية والفنية والنفسية .. واللغة العربية بهذا المعنى هي الحياة العربية أو الوجود العربي .. فإذا وقف دارس ينظر في شؤون هذه اللغة فكأنه ينظر في كل ما يتصل بالحياة العربية .. وما أوسع آفاق الحياة العربية التي تحتاج إلى نظر ودراسة . وعلى ذلك فإن القضايا التي وقف عندها التقرير ليست على سبيل الحصر ولم يقصد فيها إلى الاستيفاء ... والمشكلات اللغوية تتعدد وتتنوع وتتفرع حتى لتستعصي على الاحاطة بها في حيز محدود .

2 — ولكن التقرير آثر أن يلمح كبريات القضايا ... وقد تجر هذه القضايا إلى ما يتفرع عنها وذلك أمر طبيعي (مثلا قضية الخط العربي والكتابة العربية واحدة من قضايا تعليم العربية للناطقين بها أو لغير الناطقين بها) .

3 — وفي تناول التقرير لهذه القضايا كان يعرف بها ويبين عن أهم جوانبها ثم يتعدى الوصف أحيانا إلى اقتراح بعض الملاحظات والتوجه نحو الحلول ، تمهيدا للدراسات المتعمقة المرتقبة التي تنوي المنظمة القيام بها .

4 — وقصد التقرير قصدا إلى تجاوز الشواهد أو بعض المعلومات أحيانا إيثارا للايجاز ، مكتفيا بالدراسة الداخلية وببعض الاشارات الخارجية للاثارة أو للبرهان .

5 — ويلاحظ المتتبع أن التقرير سكت عن بعض ما طلب منه (اقتراح بعض الاسماء لدراسة بعض القضايا) وذلك لسبب بسيط خلاصته أن صاحبه — بحكم متابعته لقضايا اللغة العربية — يعتقد أن كل هذه القضايا المطروحة قد عُرِضت في أشكال مختلفة من العرض ودرست في ألوان من الدراسة ، وعقدت لها اجتماعات ولجان وندوات...

ولذلك فهو يتمنى على المنظمة :

1) جمع الدراسات التي قامت حول هذه النقاط (أو النقاط الأخرى)

2) ثم وضعها بين أيدي الباحثين المختارين على أنها جهد جدير بالافادة منها

3) ثم الاضافة عليها أو تتويجها في حدود ما ينتهي إليه الرأي .

وهذا خير من المعاودة والابتداء من الصفر ... لأن هذا الابتداء اهدار لجهود سابقة لاشك في قيمتها ومكانتها (مثال : الترجمة وهي وجه من قضايا العربية لم أعرض له هنا ، عقدت لها ندوة في الكويت شارك فيها طائفة صالحة من المفكرين والمترجمين وانتهت إلى توصيات وقرارات ما أحسب أن عليها مزيدا ، ومثل الترجمة قضية المصطلحات ، ومثلها أمور كثيرة أخرى) .

6 — ومع ذلك فإن الأسماء قابلة لأن يُتحدّث في شأنها ، من غير نص عليها في هذا التقرير ... كأن تسمى في جلسة ما تعقد لمناقشة التقرير نفسه للخروج منه إلى المرحلة التي تليه .

7 — وأشكركم على أن أتحتم لي فرصة إعداد هذا البحث .